



# يَدِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ

بقلم

د/ نخبذ السَّارُّ اللُّوجِي

الاستاذ بكلية الآداب وجامعة القاهرة

## تعريف

التصنيف هو تنظيم الاشياء أو الافكار في مجموعات يتوافر في كل منها أكبر عدد من السمات أو الخصائص المشتركة .  
وفي كل مجال من مجالات الحياة تلقائيا امثلة متعددة للتصنيف فالملابس في البيت تجمع معا في مكان غير المكان الذي توضع فيه الاطعمة ، والسلع في المتاجر ترتب في فئات متميزة يتفق كل منها في عدد من الصفات والملامح ، وبدون هذا الترتيب يتعذر الوصول اليها والتعامل معها .

وال مكتبة بدورها مضطرة الى أن تنظم مجموعاتنا أو أن تصنفها بطريقة ما لتيسر استخدامها والاستفادة منها . وإذا أخذنا مبدأ التشابه أساسا للتجميع وجدنا أن مقتنيات المكتبة يمكن أن تقسم الى مجموعات أو فئات طبقا لمعايير متعددة .  
فعل اساس الشكل المادي تفصل الكتب عن الدوريات ، وتفصل المواد السمعية والبصرية عن هذه وتلك . وفئة الكتب وحدها يمكن أن تقسم الى مجموعات يتفق افراد كل منها في الحجم أو اللون أو اللغة أو المؤلف أو تاريخ النشر ولكن المعيار الموضوعي هو افضل المعايير التي يمكن أن تجمع المؤلفات على اساسها لا لأن المحتوى الفكرى هو اهم معالم الكتاب فحسب ، ولكن لأن الكتب تطلب - عادة - لما فيها من مساهمة علمية بغض النظر عن أحجامها أو ألوانها أو حتى مؤلفيها .

ونظم التعليم في العالم كله تدعم هذه الحقيقة وتؤسرها . فالتخصص الموضوعي هو أساس الدراسة في الجامعات . بل إن التخصص الزائد هو سمة العصر الذي نعيش فيه نتيجة لتضخم المعرفة واستحالة أن يستطيع فرد أن يلم بجميع أطرافها ، أو حتى بجميع أطراف مجال واحد من مجالاتها .  
وإذا فنصنيف الكتب في المكتبات هو تحديد لموضوعاتها . وترتيب تلك الموضوعات في بناء متعلقى يعكس الصلات التي تربط بعضها ببعض . واستخدام هذا الترتيب في صف الكتب على الرفوف والبطاقات في الفهارس (١) .

---

(١) كما يحدث في الفهرس المصنف وفي قائمة الرفوف .

## ترتيب موضوعي .. ولكن ؟

ومع أن الترتيب الموضوعي هو أفضل طرق الترتيب في المكتبات ، بل هو الترتيب الوحيد المتبع وأن اختلفت التفاصيل ، إلا أننا ينبغي ألا ننظر به الكمال والاحكام . والا ننصور أنه جامع مانع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ذلك أننا في تطبيقنا لهذا الترتيب قد نضطر الى عزل بعض المواد التي تعالج موضوعا من الموضوعات عن بقية ما كتب فيه لسبب أو لآخر . فالدوريات واطالس والمجسمات والشرائح والاشربة المسجلة والافلام - عادة - تفصل عن الكتب لأنها تحتاج الى طريقة في الحفظ تختلف عن طريقة حفظ الكتب . وكتب الاطفال كثيرا ما تفصل عن كتب الكبار . والمراجع التي يكثر الطلب عليها ولا يسمح باعارتها خارج المكتبة تفصلها معظم المكتبات عن بقية مقتنياتها . كما تفصل مجموعات المخطوطات والنوادر وأوائل المطبوعات عن اساس انها تحتاج الى عناية أكثر وأن قراءها يختلفون عن جمهور القراء . ومعنى ذلك أن المجموعات الموجودة تحت كل مجال من مجالات المعرفة ستفتقد ما يندرج تحت هذا المجال من مراجع ودوريات ومخطوطات وكتب اطفال ومواد سمعية وبصرية .

وللادب وضع خاص في التصنيف ، فالمؤلفات فيه لا ترتب وفقا للموضوعات الادبية كالمدح والهجاء والغزل والرثا - ونما ترتب على اساس الغالب الادبي الذي صبت فيه كالشعر والتعصص والمرحيات والخطب والمقالات . وتحت كل شكل من هذه الاشكال الادبية يكون الترتيب بالمصور ، ثم يرتب انتاج كل عصر بالؤلئين . والسبب في ذلك أن دراسة الادب تسير على هذا المنوال وأن دارس الادب يهتم بالشكل الادبي أكثر من اهتمامه بالموضوع .

ومع أن هذا الترتيب هو الافضل بالنسبة للمؤلفات الادبية إلا انه يخلو من العيوب ، فالباحث الذي يبحث عن الادب العربي في عصر بني العباس - مثلا - سيجد هذا الادب موزعا حسب القوالب الادبية ، ومن ثم لا بد له من أن يجمع مادة بحثه من أماكن متفرقة . وتلك مشكلة المصنف دائما . فعينما تتعدد ابعاد دراسة الموضوع ينبغي عليه أن يناضل بينها وأن يختار الترتيب الذي يحقق للمتعاملين مع المكتبة أكبر قدر ممكن من الفائدة .

ولا يقف الامر عند هذا الحد فحسب ، وانما قد يتمدد أكثر من ذلك حين تجمع صفتان من الصفات في كتاب - فموسوعات الاطفال - مثلا يميزها الشكل الموسوعي من ناحية ومستوى المعالجة من ناحية اخرى . ومن ثم يمكن أن توضع مع المراجع ويمكن أن توضع مع كتب الاطفال . والسؤال الذي يبرز الان هو : أى الاعتبارين يرجح الاخر؟ والاجابة عليه يحددها نوع المكتبة وطبيعة جمهورها وأى البديلين أكثر فائدة لهذا الجمهور - وعموما فحيثما تخصص قاعة لكتب الاطفال فالأفضل دائما أن تكون موسوعات الصغار في هذه القاعة لا في قاعة المراجع .

نخرج من هذا كله بأن الترتيب الموضوعي للمواد المكتبية وان كان أفضل أنواع الترتيب الا أنه يتمدد تطبيقه تطبيقا كاملا . وتلك أول السبلات التي ينبغي أن نكتب لها في تصنيفنا لتلك المواد . فالاقسام الموضوعية ليست كاملة مائة في المائة كما قد يتوهم البعض . ونبادر فنقول ان مائة في المائة هذه لا وجود لها في أى قضية من قضايا التصنيف . فالتاريخ - مثلا - يقسم الى مناطق جغرافية . وكل منطقة من المناطق أو بلد من البلدان يقسم تاريخه الى عصور . ومع أن هذا التقسيم هو الامثل بالنسبة لدراس التاريخ الا أنه لا يلبي حاجة من يبحث في تاريخ القرن التاسع عشر - مثلا - دون تحديد للمكان .

وليس هذا هو الصدد الوحيد في جدار الترتيب الموضوعي ، وانما هناك مسائلتان أخريان لا بد الا تغييا عن بال المصنف وهما :

(١) أن الترتيب الموضوعي يؤم باستقلال فروع المعرفة عن بعضها . وليس الامر كذلك في واقع الحال . فالطبيعة علم ، والكيمياء علم ، ولكن بينهما من صلات القربى ما يبرر دراستهما معا كمادة واحدة في المدارس تحت اسم « العلوم العامة » . والاثار فرع من التاريخ ، والعمارة فيها جانب من الفن وجانب من الهندسة ، ولكن من منا يستطيع أن يزعم أن كتب الاثار لا تتحدث عن فن العمارة وهندستها ؟ . وينبئ على ذلك أننا لو جئنا كل ما يتناول العمارة من كتب الاثار ووضمناها مع العمارة لاكتملت مجموعة العمارة ولكن على حساب مجموعة الاثار . والعكس صحيح أيضا .

(٢) أن واقع التأليف لا يتطابق دائما مع التقسيمات النظرية للمعرفة .

فالكتاب الواحد قد يعالج أكثر من موضوع . ومع ذلك فلا بد من وضعه في مكان واحد على رفوف المكتبة ومن ثم لا بد أن يأخذ رقما واحدا للتصنيف . فأيّن نضع كتابا من العلاقات بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية ؟ هل نضعه مع الكتب التي تتكلم عن المملكة أم مع الكتب التي تتناول الولايات المتحدة أم مع كتب العلاقات الدولية ؟ وكتب من اختيار الكتب للمكتبات الجامعية هل الأفضل أن يوضع تحت المكتبات الجامعية أم تحت اختيار الكتب ؟ وكتاب شامل من قناة السويس هل يوضع مع مصر أم مع الملاحة أم مع الجغرافيا أم مع الاقتصاد أم مع القانون الدولي ؟

والاجابة على هذه الاسئلة يحكمها مبدأ واحد ينبغي أن يضعه المصنف في ذهنه دائما . بل ينبغي أن يحكم كل العمليات الفنية التي تجرى في المكتبة من تزويد وفهرسة وتصنيف . هذا المبدأ هو أن تنوحى أكثر السبل نفعا للقارىء وأن نضحي بفائدة قليلة من أجل تحقيق فائدة أكبر .

### ولكن لماذا نصنف ؟

والتصنيف أو تنظيم الكتب في مجموعات متميزة ضرورية تلجأ اليها المكتبات كوسيلة لتيسير استخدام تلك المجموعات والاستفادة منها . ولتوفير وقت الباحثين وجهدهم . وقضا من ذلك فهو يساعد على تحقيق التوازن بين مقتنيات المكتبة في مختلف مجالات المعرفة . ويكشف عمن مواضيع النقص والضعف في تلك المقتنيات كى تعمل المكتبة على تلافيتها .

وثمة فائدة أخرى نجنيها من وراء التصنيف وهي أنه يقدم للباحثين خريطة للمعرفة يتيحون من خلالها الجوانب المتعددة لكل موضوع، والصلات القائمة بين مختلف الموضوعات . فالباحث الذي يقف أمام مقتنيات المكتبة في مجال السياسة - مثلا - يستطيع أن يتبين مجالات البحث السياسي بكل ما يدخل تحته من أشكال الدولة والحزاب السياسية والحقوق السياسية . للأفراد وعلاقة الدولة بمواطنيها وعلاقتها بغيرها من الدول . وغير ذلك من تفرعات السياسة . والباحث الذي يقف أمام مجموعة الفيزياء لا يلبث أن يتبين مباحث هذا العلم من صوت وضوء وحرارة وكهربية ومغناطيسية . ومن دراسة لخصائص الاجسام الصلبة والموانع والغازات ولا يلبث أن يجد على مقربة من علم الطبيعة هذا علوما أخرى وثيقة الاتصال به كعلم الكيمياء . وعلم الفلك وعلم الحياء . وفي ذلك لفت

لانتباهه الى ابعاد الموضوع من ناحية ، والى الموضوعات ذات الصلة القريبة به من ناحية أخرى .

### التصنيف عبر التاريخ :

**وفكرة تصنيف المعرفة تضرب في التاريخ بجذور بعيدة ففي العالم القديم** قسم أفلاطون المعارف الى محسوسات ومعتولات ، والمحسوسات عنده هي العلوم الطبيعية ، أما المعتولات فتشمل العلوم الرياضية والالهيات . ومن بعده جاء أرسطو فجعل العلوم ثلاثة أنواع : نظرية وعملية وإبداعية ( وهي الشعر ) .

وفي العصر الاسلامي كان لعلماء المسلمين نظرياتهم في تصنيف المعرفة . وعلى رأس هؤلاء يأتي الكندي والفارابي والخوارزمي وابن سينا واخوان الصفا وابن خلدون ، فالكندي قسم العلوم الى دينية وفلسفية ، وابن سينا قسمها الى نظرية وعملية ، واخوان الصفا قسموها الى رياضية وطبيعية ونفسية والهيئة وابن خلدون قسمها الى عقلية وعملية ، فالعلوم العقلية هي علوم العربية والاسلام التي تتناولها أجيال الامة جيلا بعد جيل ، والعلوم العقلية هي ما عدا ذلك من المعارف التي لا تختص بها أمة من الامة .

وبعد مضي بضعة قرون على هذه الافكار الاسلامية ظهر فرانسيس بيكون على الناس في انجلترا والعالم كله بتصور للمعرفة البشرية ود فيه جميع المعارف الى ثلاث قوى هي الذاكرة والخيال والعقل ، واعتبر التاريخ حصيلة الذاكرة ، والشعر نتاج الخيال ، والفلسفة نتاج العقل .

هذا من تصنيف المعرفة ، أو التصنيفات الفلسفية للمعرفة . أما تصنيفها كما تتمثل في الانتاج الفكري أو المؤلفات فقد بدأ هو الآخر مع ظهور المكتبات . فديورانت يذكر في مقصده الحضارة أنه في الالف الثالث قبل الميلاد كانت الألواح الطينية محفوظة في جرار مصنفة ومرتبطة على رفوف تملأ عددا كبيرا من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها (١) ويذكر كلارك Clark في كتابه ( العناية بالمكتبات ) The Care of Books أن مكتبة آشور بانيبال ( في القرن السابع قبل الميلاد ) كانت الواحها مرتبة في مجموعات مصنفة تحت شئمة رؤس موضوعات هي : التاريخ والقانون والعلوم والسحر والمعتقدات والاساطير (١) . ومن

المعلوم أيضا أن كاليماخوس أمين مكتبة الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد نظم فهرس المكتبة في ١٢٠ صنفا ورتب بعض اجزائها ترتيبا زمنيا بالصور .

وفي العصور الوسطى كانت مكتبات الاديرة في أوروبا ترتب كتبها في خزائن حسب الموضوعات وكانت كتب كل موضوع ترتب تبعا لاحتياجاتها وأبسط صور التصنيف التي كانت تتبعها تلك المكتبات أن تفصل كتب المؤمنين عن كتب الملحين وتضع هذه في جانب وتلك في الجانب المقابل . ولم تكن المكتبات الإسلامية في العصور الوسطى تهمل التصنيف أو تهمله ، فلا تكاد توجد مكتبة كبيرة ، عامة أو خاصة ، بدون تصنيف . ويكفي أن نذكر من مكتبات الخلفاء والوزراء خزنة العزيز ومكتبة الحاكم بأمر الله في القاهرة . ومكتبة الحكم المستنصر الأموي في قرطبة ، وخزنة عضد الدولة البويهى في شيراز . فأبو شامة يذكر في كتابه «الروشتين»

أن صلاح الدين الأيوبي وجد مكتبة الفواعلم مفرسة ومصنفة (٢) . ويحدثنا المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم » أنه لم يبق كتاب صنف في وقت عضد الدولة البويهى الا وحصله في مكتبته ، وأن كل موضوع في هذه المكتبة كان له « بيوت وفهرسات » (٣) . ويذكر القفطى في « اخبار الحكماء » أن ابن سينا دخل بخارى فوجدها مصنفة (٤) .

وكذلك كانت الكتب في المدرستين النظامية والمستنصرية في بغداد مصنفة ليسهل تناولها ، ولا يتعب تناولها .

ولكن هذه التصنيفات كلها كانت تصنيفات موضعية ان صح هذا التعبير ، فكل منها قد عمل ليناسب مقتنيات معينة ولم يكن في العيبان يوما أن يستعمل أى منها في مكتبة أخرى غير المكتبة التي عمل مسن أجلها . وظل الحال كذلك حتى جاء العصر الحديث وتنوعت المكتبات وتعددت وتضخمت مجموعاتنا نتيجة لظهور الطباعة وانتشار التعليم ، فتولد التفكير في عمل نظم تصنيف تصلح لعدد كبير من المكتبات ، وتخفض ذلك عن ظهور خطط التصنيف الحديثة .

---

(١) لفة الحضارة ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .

## خطط التصنيف الحديثة :

ولقد سارت نظم التصنيف الحديثة في اتجاهين كانت ثمرة اولهما ما يعرف الان بخطط التصنيف العامة ، وكانت ثمرة الثاني ما يسمى بخطط الخاصة .

اما الفئة الاول من الخطط وهي الخطط العامة فتعنى كل مشروع المعرفة البشرية وتقدمها في ترتيب مقنن يستعرض كل موضوع بكافة تفرعاته وجزئياته ويرامى الصلات بين هذه التفرعات من ناحية والصلات بين الموضوع الرئيسى وغيره من ناحية اخرى بحيث تتجاوز الموضوعات المتقاربة .

وتنقسم هذه الفئة من التصنيفات بدورها الى نوعين أحدهما جاهز والاخر تفصيل . تماما كالتياب . فالنوع الاول يعطيك قطعاً من الملابس جاهزة ذات مقاييس مختلفة وما عليك الا أن تبحث عما يناسبك منها . أما الاخر فلا يعطيك شيئاً جاهزاً وإنما يعطيك القماش ويترك لك أن تفصله على مقاسك وذوقك . ولا يخفى أن هذا النوع الاخير غالباً ما يكون مضطرب ولكنه أغلى تكلفة وأبطأ في الانتاج .

وتسمى الخطط الجاهزة بالخطط الحصرية . ويمثلها معظم خطط التصنيف العالمية وأشهرها وهي :

التصنيف المشرى للمفيل ديوى

والتصنيف الموسع لكتر .

وتصنيف مكتبة الكونجرس الامريكى .

والتصنيف الموضوعى لجيمس براون .

والتصنيف الجيولوجرافى لهزى افلين بليس .

اما الخطط ( التفصيل ) فيطلق عليها ( الخطط التحليلية التركيبية ) ويمثلها تصنيف الشارحة Colon الذى وضعه المالم الهندي رانجاناثان وثمة خطة عامة تقف في منتصف الطريق بين الخطط الحصرية والخطط التحليلية التركيبية لان جزءاً منها جاهز والاخر تفصيل . هذه الخطة هي التصنيف المشرى العالمى UDC الذى يستخدم الاساس الحصرى



المشرف الذى وضعه دوى وفى الوقت نفسه يستخدم التحليل والتركيب  
لتخصيص الموضوع .

وأما خطط التصنيف المتخصصة فهى التى تغطى فرعاً واحداً من  
فروع المعرفة الاسلام أو التربية أو الادارة الهندسية أو الالكترونيات، أو  
عدة فروع تتصل ببعضها كالمعلوم الاجتماعية أو الفنون وهى كثيرة . ولا  
يغفى أن هذا النوع من التصنيف أنسب للمكتبات المتخصصة وأصلح من  
أى تصنيف عام .

٢. عبد الستار الحوجى

---

(١) The Care of Books , 3-4

(٢) كتب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ط ص ٢٦٨

(٣) احسن التقاسيم ، ص ٤٤٩

(٤) أخبار الحكماء ، ص ٤١٦ .